يجب أن تكون ثقافتنا قومية

بقلم الأستاذ أحمد الشرباصي من علماء الأزهر

لقد كان تيمورلنك واهما كل الوهم حين قال : " يجب ألا يكون في الأرض إلا ملك واحد ، لأنه ليس لليكون إلا إله واحد " ! . كان واهما في ذلك لأن الناس لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، وما دعوى العالمية المطلقة التي يحلم بها بعض الخياليين إلا سراب ، فستقضي الدهور وتمر القرون والأرض تتوزعها الأمم وتتقاسمها الأوطان ، وسيظل الناس إلى ما شاء الله أقواما وشعوبا وطوائف ، لأنه يستحيل على البشر أن يتحدوا يوما من الأيام في كل جهة وعلى كل شيء ! . . وإذا كان هناك فريق من أبناء الوادي قد هتفوا بالأمس القريب : " تحيا العالمية وتسقط القومية " فعلهم حين فعلوا ذلك قد فعلوه تحت تأثير خطبة ساحرة برنينها وحينها ، وعذوبة ألفاظها ورقة أسلوبها ، حدثتهم عن جميل الأماني وبديع الأحلام ، وخاطبت قلوبهم قبل أن تخاطب عقولهم ، وغزت عواطفهم قبل أن تغزو أذهانهم ، وإلا فقد كانوا جديرين بأن يستعرضوا أمامهم تاريخ البشرية من أوله القديم البعيد إلى حاضره الدانى القريب ، لكي يعلموا أن هذا الحلم الجميل لم يتحقق في يوم من الأيام ، ولم يظهر من النوادر أو الظواهر التي تبشر بأنه ممكن معقول . وأظنهم يعلمون أنه لا يمكن للدنيا أن تجود بزعيم عالمي كمحمد عليه السلام ، ويعلمون أنه جاهد في سبيل العالمية الإسلامية جهادا لا يستطيعه زعماء الدنيا أجمعين ، ومع أنه وفق في جهاده ، ومع أنه أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، ومع أنه نشر لواء الإسلام على ملك لا تغرب عنه الشمس ، فانه لم يجمع العالم كله تحت لوائه ، ولم يقلب الدنيا كلها فيجعلها كلمة واحدة وشعبا واحدا في كل شيء . . . ولم يكن ذلك عن عجز منه أو تقصير ، بل لأن الله قال له : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم " . وقال له : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " .

نعم لو شاء ربك لخلق للناس " العالمية " ... ولو شاء لجمع الناس على كلمة واحدة ، ولكنه ، لحكمة أرادها ، جعلهم — وسيجعلهم هكذا دائما — أمما وشعوبا إلى أن يقبض الأرض ومن عليها ! . .

إذن فالقومية باقية دائمة ، ومن الواجب على كل أمة أن تعنى بمشخصاتها الوطنية ، ودعائمها القومية التي تستطيع أن تنهض عليها بين الشعوب الأخرى التي تختبط في الحياة سبيل المسابقة والمنافسة والمغالبة ... ومن الواجب على الأمة أن تعنى بتنشئة أبنائها على العصبية الشريفة المعقولة للوطن والمواطنين ، وألا تخدع بتلك الألفاظ المعسولة التي يصيبها في آذانها دعاة التحلل الوطني الذين ينعقون من حين لحين .

ومن الواضح الجلى أن الطفل إذا نشأ دون أن تغرس المبادئ الوطنية والدعائم القومية فى نفسه وقلبه ، فسينشأ فاتر الهمة خائر العزيمة ضعيف الوطنية ، يشهد وطنه فى النكبة فلا يسعفه ، ويرى داعى الجد والكفاح يستصرخ به فلا يسمع ولا يجيب . . . وإذا ما ضعفت الروح الوطنية فى نفوس الشباب فتوقع لأمتهم التحلل والفناء ، وقل على وجودها العفاء ! .

ذلك كله كلام صريح صحيح ، لا يعارضه ولا يجادل فيه إلا عنيد مكابر لا يستجيب لكلمة الحق ، ولا يصيخ لقولة الصدق ، فتعال بنا نتعرف نصيب مصر من الجهاد فى سبيل القومية والوطنية ، ولنشهد ما تقوم به من أعمال تربية شبابها وفتيانها وأطفالها تربية مصرية قومية فيها من دواعى الاعتزاز بالوطن ، والغيرة على حريته ، والحرص على كرامته ، والذود عن حماه ، ما يكفل لمصر أن تكون دولة شامخة مهابة الجناب ! .

تأن ولا تعجل يا صاحبى ، فلن تجد حين تذهب باحثا عن ذلك إلا ما يدمى القلب ويؤلم الروح ! .

ستجد مصر لم تقدم قليلا ولا كثيرا فى هذه السبيل ، وستجد مصر غافلة عن هذه الناحية الخطيرة التى يتعلق بها وجودها وكينونتها . . . ستجد الأطفال فى مصر يتعلمون ما يتعلمون ويقضون الأعوام الطوال فى حجرات الدرس ، ثم لا يتلقون من تاريخ بلادهم ، أو مواقف أبطالهم ، أو مدى آمالهم ، ما يكفى لإشعال الجذوة الوطنية فى أرواحهم ، بل هم — والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه — يتلقون من تاريخ الأمم الأخرى المعادية منها والصديقة ، أكثر مما يتلقون من تاريخ آبائهم وأجدادهم القريبين والبعيدين .

ستجد الشباب لا يعرف ما يجب عليه لوطنه وواطنيه ، وستجد كثيرا من شبابنا لا يفهم كيف تحكم بلاده ، أو كيف تقنن ، أو كيف تنفذ مشروعاتها ، أو كيف تسعى إلى آمالها المادية والأدبية ، أو كيف تتعاون الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية على إدارة أمور البلاد ، أو ما هى اختصاصات كل جماعة وواجبات كل طائفة ، إلى غير ذلك من شؤون الوطن التى يجب على كل وطنى أن يحيط بها علما ! .

ستجد أكثرهم لا يعرف شيئا عن طريق شقيقاتنا الأقطار العربية التى يتكون منها الوطن الاسلامى الأكبر ، وقد يسمع الحديث عن الوحدة العربية فلا يفهم معناها الصحيح ، ولا الأوضاع التى تنشد أن تكون عليها فى المستقبل القريب أو البعيد ! . . . وقد يتناول المصرى القارئ صحيفة أو مجلة أو كتابا ، وفى كل منها أحاديث عن مصر وأحاديث عن غيرها من الشعوب والأمم ، فتراه لا يهتم بمطالعة أحاديث بلاده ، بل هو يرتع إلى الفصول الطوال التى دبجت عن الأمم الأخرى فيطالعها فى تدبر ودقة ، مفاخرا بذلك متباهيا ، حاسبا أن هذا من علامات الرقى والتقدم .

وتلك هى جمهرة شبابنا من طلاب الجامعات والمعاهد العالية ، تجدها تعنى بدراسة الآداب الأوربية أكثر مما تعنى بدراسة الآداب العربية أو المصرية ، وإنك لتجد أمثال شكسبير وجوته وفولتير وشوبنهار وروسو وبيرون وشلى وتولستوى ولامرتين ونيتشه وغيرهم من رجال الغرب أشهر لديهم وأعرف من أمثال المتنبى والبحترى وابن رشد والفارابى وابن نباته والغزالى وابن الفارض والبوصيرى وغيرهم من مفكرى مصر والعرب ، وقل مثل هذا عن أبطال التاريخ والسياسة والتشريع والاجتماع ! .

بل إننا إذا انتقلنا إلى الأزهر الشريف وهو معقل القديم وقلعة المحافظة ، راعنا أن نجد ثقافته اليوم مضطربة مذبذبة بين القديم والجديد ، يعز على أبنائه تراث الأسلاف فيتمسكون به ، ويبهرهم رواء الحديث فيندفعون نحوه ، وبين الماضى والحاضر يقف الأزهر اليوم وقفة المبلبل الحائر ، الذى لا يستطيع الملاءمة أو التوفيق بين تقاليده وبين ماجد من ثقافات ، بل لقد هتف بعض الباحثين متوجسا الخوف من انفجار الأزهر المحافظ فى تيار الثقافة الحديثة دون أن يصلها بثقافاته الموروثة ، ويرى ذلك البعض أنه تجب المبادرة بإصلاح هذه الحال ، وإلا لفقدنا الأمل فى الإبقاء على ما يحفظ للأمة مقوماتها من أسس الثقافة الخاصة بها التى لو لم تكن قوية محروسة ، لتميعت الأمة وضاعت فى خضم الأمم ! .

أو لم يكفنا أن نشهد فى مصر تلك المدارس الأجنبية المنتشرة فى وادى النيل انتشار الجراد . تلك المدارس التى تختلف نزعاتها وتتعدد مشاربها وتتلون غاياتها ، وتهتم أول ما تهتم بنشر ثقافتها الوطنية ، وتفرض على تلاميذها ، وأكثرهم من المصريين ، أن يتعلموا اللغة غير لغتهم الوطنية ، وأن يسمعوا تعاليم دينية تخالف تعاليم دينهم ، وأن يدرسوا تاريخ أمم ورجال لم يكن لهم بهم صلة الا ما يثير الألم ويبعث الشجن ؟ .

تلك المدارس التى ذاعت وشاعت ، وزاحمت المدارس المصرية حتى غلبتها فى العدد والنفوذ ، تلك المدارس التى يحسن الظن بها كثير من المصريين ، فيدفعون اليها بفلذات أكبادهم ، وهم فى سن الطفولة البريئة الغافلة ، ثم لا يبالون : أتلق هؤلاء الأبناء ما يتفق مع دينهم ومقومات وطنهم أم لا . . . ؟ فينشأون ولا صلة بينهم وبين لغتهم ، ولا رابطة تربطهم ببنى جنسهم ، ولا وطنية تحركهم ، فيكونون كالسوس الفتاك الذى ينخر فى هيكل الأمة حتى يأتى عليه من الأساس ! . . .

أتدرون ما ذا تفعل العراق الشقيقة فى هذا الشأن ؟ . . . العراق الصغيرة التى لم تبدأ نهضتها الا منذ سنوات ، العراق الذى تدين لمصر بالزعامة وتقتدى بها فى نواحى الحياة ؟ !

فى العام الماضى تشرفت مصر بزيارة رجلين من رجال العلم فى العراق هما الدكتور فاضل الجمالى مدير التربية والتعليم بالعراق ، والدكتور متى عقراوى عميد دار المعلمين العالية ببغداد ، وهما اللذان انتدبا لتمثيل العراق فى مؤتمر تدريس العلوم الذى عقد بالقاهرة ، وقد تحادثا مع وزارة المعارف المصرية فيما تحادثا عن المدارس الأجنبية فى مصر والعراق ،

وقد نشرت جريدة "البلاغ" يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ كلمة عن هذه المحادثات جاء فيها هذا الخبر :

"وقد علمنا من مضمون هذه المحادثات أن العراق لجأ الى اجراء قانونى لم يتخذ بعد فى مصر ، وهو محاكمة كل عراقى يلحق ابنه بالمدارس الأجنبية فى المرحلة الابتدائية ، واعتبار هذا التصرف منه ضررا موجها لسلامة الثقافة القومية للطفل فى هذه السن الصغيرة ، التى يسهل فيها تكييف عاطفة الطفل وصوغ عقليته وفق ما ترمى اليه الخطط الثقافية المتباينة ، وقيل فى ذلك : ان المحاكم العراقية قضت بالحبس و بالغرامات الكبيرة على بعض أولياء الأمور لهذا السبب ، وكانت العقوبة تقدر بحسب الظروف التى يدلى بها الآباء فى الدفاع عما فعلوا ! . . ." .

هذا هو ما حدث فى العراق ، فليت شعرى ... ... أين هذا القرار السديد الحكيم الدال على الوطنية الصادقة والروح العربية الصحيحة مما يحدث فى مصر ؟ ... لقد سمعنا أن بعض علماء المسلمين فى مصر يدخلون أطفالهم ، لا فى الأزهر كما يجب أن يكون ، ولا فى مدرسة مصرية كما قد يباح ، بل يدخلونهم مدارس اجنبية مهما قيل فى خدمتها للعلم والثقافة ، فهى غريبة دخيلة ... وأين مصر من شقيقتها العراق والمدارس الأجنبية فى مصر لا تدرس علومها إلا بلغتها الدخيلة الأعجمية ، والمواد التى تدرس فيها لا تتصل بلغتنا ولا بديننا ولا بوطننا إلا بسبب ضعيف ؟ . . .

أما بعد ، فليست هذه دعوة الى العصبية الممقوتة ، ولا الى المناداة بإلغاء المدارس الأجنبية ، ولا بالتعامل على أصحابها بغير حق ، وإنما هى دعوة نرجو بها أن يعنى المصريون بأبنائهم ، فينشئوهم تنشئة قومية صالحة ، لأن الشباب هم رجال الغد ، ومن الواجب أن يكون تعليمهم مصريا عربيا إسلاميا صميما ، حتى نضمن للوادى الكريم ماته يوم الجد ، وبناته عند التعمير ، وجنوده حين الجهاد ! .

أحمد الشرباصى
خريج كلية اللغة العربية